من مسائل تقوية الإيمان

✍ أ. متولي موسى

بسبب ما نزل وينزل بالمسلمين في بلادهم وخارجها ضعفت ثقتهم بأنفسهم وبدينهم ، فاهتز اليقين في القلوب وضعف ، مما دفعني للتفكير في البحث عن السبيل الذي يمكن من تقوية يقين الفرد والأمة ، ولعل هذه الكلمات تساعد في هذا المجال .

أولاً : اليقين في اللغة والشرع

ورد في معاجم اللغة : يقن ، يقيناً : ثبت وتحقق ووضح .

تقول : يقن الشيء وبه . أي : علمه وتحققه

يقول الشاعر :

إذا سكن الغدير على صفاء وجنب أن يحركه النسيم

لأن الماء إذا يقن : صفا واستقر بحيث ترى الحجر الصغير الذي يوجد في قاع الغدير .

واليقين هو غاية الإيمان ، وهو أفضل ما أوتي الإنسان في الدنيا . ورد في تفسير ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - ، في معنى قول الله سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام : {... **لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ...} [البقرة : ٢٦٠] : أي : ليهدأ ويسكن باليقين الذي يستيقنه .

ومن الأمور الثابتة أن التصديق القائم بالقلوب يزيد وينقص ، ويتفاضل فيه البشر ، وأن هذا اليقين الذي هو من عمل القلب ، يمكن تحصيله وزيادته بالنظر في آيات الله الكونية ، والنظر في آيات الله الشرعية ، وعليه فإنه يضعف بالغفلة والتعرض لغرور ووسوسة شياطين الإنس والجن ، وكذلك باشتداد الدوافع الدنيوية وضعف إرادة الإنسان .

ثانياً : من وسائل تقوية اليقين

لا شك أنها كثيرة ولكنني سوف أذكر هنا أهمها ، وهي :

(١) تجديد اليقين : الإنسان كائن حي يتأثر بما يحيط به ويؤثر فيه – إذا كان صاحب تأثير – وبالتالي تتأثر أعمال القلوب – ومنها اليقين – إذا اتبع الإنسان منهجا معينا في حياته ، ومن أهم القواعد التي يعتمد عليها منهج تجديد اليقين ما

يلي :

◆ الاعتقاد أن ارتفاع النفس في درجات التقدم والتطهر ، أو انحدارها في دركات الانحطاط والتدسي مرهون بمشيئة الإنسان وإرادته التي لا تخرج عن مشيئة الله تعالى وإرادته ، لقوله تعالى : { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** } [الشمس : ٧-١٠] ؛ وقوله سبحانه : { **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ... } [الرعد : ١١] .

◆ والعلم بأن النفس السوية تعتمد على إحداث التوازن بين الملكات المتنازعة والمتصارعة التي أودعها الله تعالى فيها ، والخضوع لمنهج الله تعالى في واقع الحياة فهو الذي يحقق الانسجام بين الباطن والظاهر ، والسر والعلانية ، والقول والعمل .. فالله تعالى الخالق هو الذي قال : { ... **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞**

قالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى } [طه : ١٢٣- ١٢٦] .

◆ ولا يخفى أن الدين الإسلامي يهدف إلى إحداث التعايش السلمي بين ملكات الإنسان وغرائزه ودوافعه وشهواته والقوى الأخرى ، بحيث يرتفع المسلم بسلوكه فوق كل قبيح ومذموم : فيأكل من غير شره ، ويشبع غريزة الجنس في غير حرام ، ويستطلع الأخبار في غير تجسس ، ويحقق مصالحه في غير ضرر ولا ضرار ... إلخ ، فالمنهج الإلهي الإيماني هو الذي يجعل مكونات الشخصية تتساند وتتعاضد ، ولا تتضاد وتتعاند فيقوم الإنسان بمهمته ويؤدي دوره المشروع بيقين وعلى استقامة .

◆ الإيمان بأن العلم الشرعي والفكر الإيماني هو الذي يرشد إلى حقائق الحياة ، ويحدد للإنسان دوره ومهمته التي ينبغي أن ينهض بها ، وهذا العلم اليقيني هو الذي ورد في الوحي ، وذلك الذي يكشفه الله تعالى للإنسان من خلال حقائق العلم في نفس الإنسان والآفاق ، ويتجلى ذلك بتدبر قول الله تعالى : { **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ**

تَعْمَلُونَ } [الجاثية : ٢٩] وقوله سبحانه : { ... **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** } [فصلت : ٤١-٤٢] ؛ وقوله عزَّ وجلَّ :﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت : ٥٣] .

◆ وأخيراً لا بد للإنسان من التفقه في الدين فهو لا يستطيع أن يعرف الحرام حتى لا يفعله ، والواجب حتى يفعله ، إلا من خلال الفكر والفهم والعلم . قال رسول الله ﷺ : (**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**) متفق عليه ، وقال : (**خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا**) رواه البخاري .

(٢) جلاء القلوب : ما دامت القلوب تصدأ بالإنكار والغفلة ، فإن جلاءها يكون بالتصديق والإنابة :

▪ **التصديق** : إذا كان التصديق يعني : " إدراك الحكم أو النسبة بين طرفي القضية " ؛ والحكم عند الأصوليين هو: " خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء ، أو التخيير ، أو الوضع " فيكون القصد بالتصديق هنا - بوصفه جلاء القلوب - : إدراك عدل الله عزَّ وجلَّ في حكمه بفهم قوله

تعالى : { **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُون** } [المائدة : ٥٠] . قال الزجاج : " من أيقن تبين عدل الله في حكمه " .

والحق الذي لا مرية فيه أنه لا أحد أعدل من الخالق سبحانه ، وهو الذي يدركه الموقنون بدين الله تعالى ، ويذعنون لشرعه ، لأن حكم الله عزَّ وجلَّ يجمع بين منتهى العدل والتزام الحق من الحاكم ، ومنتهى القبول والإذعان من المحكوم له أو المحكوم عليه ، وهذا ما تَفْضُل به الشريعة الإلهية القوانين البشرية .

ومضمون الآية كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا : " أن مما ينبغي التعجب منه من منكراتهم أنهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ، ويؤثرونه على حكم الله العادل ، والحال أن حكمه تعالى أحسن الأحكام لأهل الإيمان والإسلام ، لأن حكمه هو العدل الذي يستقيم به أمر الخلق ، وأما حكم الجاهلية فهو تفضيل القوي على الضعيف ، الذي يُمَكّن الظالمين الأقوياء من استذلال أو استئصال الضعفاء ، وهو شر الأحكام ، المخرب للعمران المفسد للنظام " .

وقد أرشد الله تعالى العليم بخلقه الرحيم بهم إلى سبل تحصيل هذا التصديق فقال عزَّ وجلَّ : { **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ ۞ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ۞ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** } [الروم : ٥٨-٦٠] ؛ وقال سبحانه : { **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۞ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ** } [الطور : ٣٤-٣٦] ؛ وقال تباركت أسماؤه : { **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** } [الكهف : ٢٨].

وعلى الإنسان أن يأخذ العبرة من نفسه ، فقد أمكن في هذه الأيام أن يسمع الإنسان ويرى ما يقع ويحدث في أطراف المعمورة أو على كواكب أخرى من خلال الأخبار في الرائي " التليفزيون " ، فالأذن تسمع وقد تلاشت المسافات نسبياً ،

والعين ترى وقد تلاشت المسافات نسبياً . وهذا كله أصبح ممكناً بالعلم الذي مكن الله تعالى الناس من الوصول إليه .. فإذا كان هذا العلم اليسير الذي علمه الله تعالى لبني آدم ، جعل الإنسان يسمع ويرى مع التلاشي النسبي للمسافات ... فكيف يكون الحال في الآخرة عندما تكون القدرة كلها – كما هي من قبل ومن بعد – لله تعالى الذي : { **ليس كمثله شيء** } ، ويتكرم سبحانه متفضلاً على الإنسان بمنحه إمكانات إضافية أخرى ... فماذا سترى العين ؟ وماذا ستسمع الأذن ؟!

نعم ؛ إن المسلم الذي يسمع قول الرسول ﷺ : (قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقرءوا إن شئتم : { **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } [السجدة : ١٧] متفق عليه ، لا بد أن يصدق ويُقر بكل ما أخبر وأمر الله تعالى به .

- **الإنابة** : هي الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة ، والتزام الطاعة ، وعدم الخروج عن شيء من أمره ، وقد ورد في التنزيل : { **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ**

٨

عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [الروم : ٣٠-٣٣] .

ولما كانت التوبة هي الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليها ، ورد المظالم لأهلها إن كان في المعصية ظلم الآخرين .

فنقول : تاب الله على العبد . أي غفر الله تعالى له ورجع بثوابه وفضله . وقد ورد في التنزيل ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [النحل : ١١٩] .

فإن الاستغفار والتوبة هما من وسائل الإنابة إلى الله عزَّ وجلَّ وتقوية اليقين ، وقد أمر الشارع الحكيم بالإسراع بهما ودوام المحافظة عليهما ، ويكفي أن نستمع إلى القدوة ﷺ ، والذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهو يقول : (**يا**

أيّها الناسُ توبُوا إلى اللهِ واسْتغفِرُوهُ فإنِّي أتُوبُ إلى اللهِ واسْتَغفره فِي كل يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ) رواه مسلم وأحمد وغيرهما .

نعم ، قد تمر بالإنسان فترات يضعف فيها يقينه ، وتستيقظ غرائزه فيسقط فريسة للهوى والغَرُور – الشيطان – فإذا تَذَكّر أو ذُكّر ، فليعلم أنه لم يخلق ملكاً كريماً ، ولا بشراً معصوماً ، وإنما هو إنسان تتنازعه قوى الخير والشر ، والمهم أن يعرف الخطأ ويسعى إلى التوبة فـ (خير الخطائين التوابون) جزء من حديث حسن .

وطريق التوبة سهل ميسور ، وبابها مفتوح على الدوام ما لم يغرغر الإنسان أو تطلع الشمس من مغربها ، فعن أنس بن مالك ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « **يَا ابْنَ آدَمَ ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ منكَ وَلا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً** » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

والله أسأل التوفيق والسداد لما يحبه ويرضاه .